

■ ثمانية قرون على الانتصار على الصليبيين: دروس التاريخ

الحروب الصليبية في الأدبيات العربية والأوروبية واليهودية

د. قاسم عبده قاسم

استاذ تاريخ العصور الوسطى -
كلية الآداب - جامعة الزقازيق بمصر.

كانت «الحروب الصليبية» تعبيراً له مغزاه عن عالم العصور الوسطى؛ في المنطقة العربية وفي الغرب الأوروبي على حد سواء. ففي خضم تلك السلسلة من الحروب، والحروب المضادة، تجلت خصائص أهل ذلك الزمان وقيمهم ومثلهم العليا، وتكشفت سلوكياتهم التي تحمل قدراً مذهلاً من التناقض بين التدين العاطفي والوحشية، بين التعصب المقيت والرغبة في معرفة الآخر، بين الفروسية والشجاعة والنبل والخسة والدناءة الأخلاقية وانغدر بالمسلمين.

لقد حملت تلك القصة، بفصولها المتعددة، تعبيراً عن الغرب الكاثوليكي في القرون ما بين الحادي عشر والخامس عشر، وما يموج به من تفاعلات اجتماعية وفكرية واقتصادية وسياسية. كما أن استجابة الوطن العربي لهذه الحركة، من ناحية أخرى، كانت تعبيراً عن واقع الوطن العربي الذي مزقته الخلافات والمنازعات بين حكامه، وأنهكته مخالب التشرد السياسي وميراث الحقد والمرارة والشك المتبادل بين الذين اعتلوا كراسي الحكم في المنطقة العربية آنذاك.

وعلى الرغم من أن معارك «الحروب الصليبية» لم تكن هي الجانب الوحيد في هذه المواجهة الطويلة المضنية؛ فإن طبيعة المعارك العسكرية دائماً تجعلها أعلى الأحداث التاريخية صوتاً، وإن لم تكن أكثرها أهمية. ولذلك فإن هذه الحروب تركت تأثيرها في ثقافة أوروبا ووجدانها، كما حمل التدوين التاريخي العربي بصماتها التي تمثلت في العديد من الكتابات والحواليات التي شغلت بأبطال المواجهة وأحداثها. فقد ظل قادة الحملات الصليبية أبطالاً في التراث الأدبي الغربي يجسدون قيم القوة والبطولة والعذوانية التي تحفل بها الروح الغربية العسكرية، كما أن نجاح بعض الحملات، ولاسيما الحملة الأولى، ظل إلهاماً على مر العصور بالنسبة لكل مشروعات التوسع والنمو الأوروبي والأمريكي. بل إن تعبير «الحملة الصليبية» لا يزال شائعاً في الاستخدام اليومي في أوروبا وأمريكا حين يعنون قضية عامة طيبة صالحة خيرة وعادلة، من وجهة نظر العالم الغربي ومصالحه. وهذا هو المعنى الذي استخدمه الرئيس الأمريكي ريغان، وهو يتحدث عن خروج الفلسطينيين من بيروت، بعد صمودهم البطولي حوالى ثلاثة أشهر في مواجهة آلة الحرب

الصهيونية، يوم وصف الأمر بأنه «حملة صليبية» ناجحة للغاية.

لقد احتلت قصة «الحروب الصليبية» مكاناً هاماً في الوجدان الغربي عامة. ومنذ سنة ١٠٩٥م وحتى الآن لا تزال المؤلفات والبحوث والكتب والدراسات في تزايد مستمر، وكلها تحاول فهم قصة الحروب الصليبية. كما أن فنون وأداب بلدان الغرب الأوروبي (والأمريكي) لا تزال تحمل بعض مؤشرات تدل على أهمية تلك التجربة التاريخية الفذة في الوجدان الأوروبي.

أما في الجانب العربي الاسلامي، فإن الحروب الصليبية داهمت العرب في ديارهم على حين غرة، وحين اكتشف العرب المسلمون أن الصليبيين جاءوا إلى منطقتهم بقصد البقاء كانت تلك صدمة نفسية مؤلمة. وقد تركت قصة الحروب الصليبية تأثيرها في المؤلفات التاريخية والنتاج الفني والأدبي للمنطقة العربية في حينها بالشكل الذي عكس صداها في الوجدان العربي، كما أن البحث التاريخي العربي الحديث أولى الحروب الصليبية اهتمامه في نطاق الدراسات الأكاديمية. ولكن الأدبيات العربية المعاصرة لم تنتبه إلى أهمية هذه التجربة التاريخية الفذة في تاريخ أمتنا العربية، ولم يلتفت الكتاب العرب إلى هذا الرصيد الكبير من التجارب النضالية ضد العدوان الصليبي. وتصبح حاجة العقل العربي إلى تمثل هذه التجربة التاريخية الفريدة اشد إلحاحاً، في ضوء تجربة الصراع العربي - الاسرائيلي التي تحمل كثيراً من أوجه التشابه مع التجربة الصليبية.

وعلى الرغم من أن اليهود لم يكونوا طرفاً أساسياً في هذه المواجهة الطويلة المرهقة بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الأوروبية الكاثوليكية، فإن الحاح الدراسات الإسرائيلية المعاصرة على اختلاق دور تاريخي لليهود في قصة الحروب الصليبية يجعلنا نفحص الموقف الدعائي للحركة الصهيونية، وهو الموقف الذي يستخدم التاريخ وقصة الحروب الصليبية لخدمة أغراض الدعاية الصهيونية.

وهذه الدراسة تبحث في الأدبيات العربية والأوروبية واليهودية عن قصة «الحروب الصليبية» على مستويين: المستوى الأول: يتناول النتاج المباشر للشهود العيان والمعاصرين الذين دونوا قصة الحروب الصليبية في الوطن العربي وفي أوروبا. ويتناول المستوى الثاني الدراسات والبحوث والكتب الحديثة التي أنتجها العقل العربي والعقل الأوروبي حول الحروب الصليبية، فضلاً عن البحوث والدراسات التي قام بها باحثون اسرائيليون حول الموضوع نفسه.

- ١ -

على الرغم من أن المنطقة العربية كانت المسرح الأساسي الذي جرت عليه أحداث الحروب الصليبية؛ فإن الكثيرين من عامة المثقفين في الوطن العربي اليوم لا يكادون يعرفون شيئاً عن تلك الظاهرة التاريخية المثيرة. وربما يكون من أسباب ضبابية صورة التجربة التاريخية في العقل والوجدان العربي اليوم، أن البحث التاريخي قد عجز، حتى الآن، عن تكوين صورة صحيحة بشكل عام عن مغزى التجربة التاريخية العربية في مواجهة الحركة الصليبية التي كان هدفها القضاء على العروبة والإسلام، وتحويل المنطقة العربية إلى منطقة تابعة ومجال حيوي للتوسع والنفوذ الأوروبي. وربما يكون من أسباب هذا الموقف أيضاً أننا لا نزال نعيش مرحلة الاستهلاك الثقافي لما ينتجه العقل الأوروبي في مجالات كثيرة من بينها البحث التاريخي، ولم ندخل بعد في مرحلة النتاج والإبداع الثقافي.

ومع ذلك فإن تأثير الحروب الصليبية في الأدبيات العربية المعاصرة للتجربة الصليبية يبدو واضحاً في إدراك المؤرخين العرب بحقيقة الغزوة التي قام بها الفرنج تحت راية الدين. وتكشف المصادر التاريخية العربية عن وطن وحضارة في حالة دفاع عن النفس ضد عدو خارجي تسربل بمسوح الدين، على حين تشي تصرفاته على أرض الواقع بأهدافه الإستيطانية التوسعية.

فقد كان الوطن العربي مسرح الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان. وقد ظل هذا المسرح مشغولاً بالفصل الختامي لقصة الحروب الصليبية طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين؛ إذ كان على المنطقة العربية التي تتعرض للضربات اليائسة والمشروعات الصليبية المتأخرة التي وجهتها القوى الأوروبية وشرازم الصليبيين من قبرص ورودس للشواطئ العربية على البحر المتوسط^(١). وإذا لم تكن «الحروب الصليبية» هي السبب في توقف قوى الدفع والإبداع في الحضارة العربية الإسلامية وجمودها؛ فإن هذه السلسلة من الحروب كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفاع الإبداعية في هذه الحضارة وتعطيلها. فقد كان على الوطن العربي أن يوجه جهده كله، وأن يحشد طاقاته وإبداعاته جميعاً، في مجال العمل العسكري أو العمل المعنوي المهد للعمل العسكري والمتابع له. وهكذا، غلبت الصفة العسكرية على هذا الطور من أطوار الحضارة العربية الإسلامية. وعلى الرغم من هذا كله، فإن الوطن العربي لم يكن قد دخل بعد في منحني التدهور الحاد. فقد كان المستقبل لا يزال يحتفظ للعرب ببعض أعظم إنجازاتهم الثقافية والعسكرية.

ويهمنا في هذه الدراسة أن نرصد تأثيرات الحروب الصليبية على ثقافة الوطن العربي بالمعنى الواسع للثقافة؛ آدابه وفنونه، فكره وفلسفته، مثله وقيمه التي دارت حولها أشكال التعبير الفكري والوان الإبداع الفني والأدبي التي تضمنتها الفنون والآداب بكل مستوياتها.

وفي مجال التدوين التاريخي، يهمننا أن نوضح أن المصادر التاريخية العربية قد رسمت لنا صورة واضحة المعالم للشخصية الصليبية التي تعاملت معها على أرض الواقع. وهذه الصورة، بما تحمله من سلبيات وإيجابيات^(٢). تدلنا على رؤية العقل العربي للتجربة الصليبية في ذلك الحين.

فقد وصفت المصادر العربية الصليبي بأنه «عدو كافر» يتصف بالقسوة والجمود إلى حد الوحشية، وأوضحت أن مستواه الحضاري أدنى كثيراً من العرب^(٣). وهناك الكثير من الأخبار التاريخية التي تبرر هذا الوصف للصليبي بالوحشية^(٤). هذه القسوة والوحشية التي وُصم بها

(١) كان اقتحام المصريين لعكا بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩١م نهاية للوجود الصليبي على الأرض العربية، وبعدها تجمعت شرارم الصليبيين في جزيرة قبرص ورودس. انظر:

Steven Runciman, *A History of the Crusades*, 3 vols. (New York: [n. pb.], 1967), vol. 3, pp. 387 ff.

(٢) قاسم عبده قاسم، «صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية»، *المجلة التاريخية المصرية*، العدد ٢٧ (١٩٨٠)، ص ٩ - ٣٧.

(٣) العماد الكاتب الاصفهاني، *الفتح القسي في الفتح القدسي*، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ص ٥١.

(٤) انظر على سبيل المثال، كمال الدين عمر بن احمد بن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، عني بنشره سامي الدهان، ج ٢ (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥١ - ١٩٦٨)، ج ٢، ص ١٢٢ - ١٢٣ - ١٤٢ =

الصلبيون هي في حقيقة أمرها، تعبير عن المستوى الحضاري الذي عاشته شعوب أوروبا في تلك المرحلة التي شهدت اكتمال ملامح حضارة أوروبا في العصور الوسطى. ومن ناحية أخرى، كان أولئك هم أحفاد الجرمان الذين داسوا أوروبا بأقدامهم البدوية العنيفة فيما بين القرن الخامس والقرن الثامن للميلاد. كما أنهم كانوا إفرأزاً لمجتمع لا يزال في طور الفتوة والبداءة والحيوية الدافقة.

وكان من الطبيعي - في تلك الفترة - أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية من منطلق عدائي. وهي في هذا تعكس المشاعر التي خلفها العدوان الصليبي في وجدان الجماهير العربية. حقاً إن القرآن الكريم يضع المسيح عليه السلام في مرتبة سامية بين الرسل والأنبياء، كما أن على المسلم أن يؤمن بنبوة المسيح، ولكن تكفير المصادر العربية للصلبيين لم يكن تكفيراً دينياً باعتبارهم مسيحيين، وإنما هو تكفير سياسي باعتبارهم معتدين. لقد كانت الحروب الصليبية حرباً مثل أية حرب أخرى على الرغم من تسربها برداء الدين، فقد جاء الصليبيون ليشنوا حرباً عدوانية ضد العرب المسلمين بهدف انتزاع الأرض والاستيطان. وحين وصلت أنباء هذه الحرب إلى العالم العربي الإسلامي «... قلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتغالها... فشرع في الجمع والاحتشاد وإقامة مفروض الجهاد...»^(١) هكذا كان النضال ضد الصليبيين تحت راية الجهاد الإسلامي. ومن غير المنطقي والمقبول أن يكون الجهاد ضد من لايعده المسلمون عدواً كافراً.

بيد أن المصادر التاريخية العربية، في تعاملها مع الشخصية الصليبية من حيث كون الصليبي عدواً كافراً، لم تخل من الموضوعية: فقد احترم المؤرخون العرب في اعدائهم صفات الشجاعة والبسالة والقدرة القتالية، فضلاً عن الجلد وقوة التحمل. ويسوق لنا «أسامة بن منقذ» عدة أمثلة تؤكد هذه الصفات^(٢)، ويشاركه ابن شداد نغمة الإعجاب باحتمال الصليبيين وجلدهم^(٣). كذلك تتحدث بعض مصادر عربية أخرى عن فرسان الصليبيين وشجاعتهم وقدراتهم القتالية^(٤). بيد أن شجاعة المقاتل الصليبي كانت مقرونة بصفتين متناقضتين: الحذر الشديد

= أبو يعلى حمزة بن اسد بن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، وهو تنمة لتاريخ هلال الصابي تتلوه تواريخ ابن الازنق الفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي، تحقيق م.م. امدرود (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨)، ص ١٣٥ - ١٣٧: أبو عبد الله محمد بن علي بن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، وفي ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه تأليف تاج الدين شاهنشاه بن ايوب (القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، ١٩٢٧)، ص ١٤٧: أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ٦٧ - ٦٨، وأبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، حوادث سنة ٤٩٢هـ، ٥٠٨هـ. انظر أيضاً روايات المؤرخين الصليبيين عن حوادث القتل والتعذيب والدمار الوحشية التي ارتكبتها الصليبيون عند استيلائهم على القدس. قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية: نصوص ووثائق، ص ٢٥٠ - ٢٧٧.

(٥) ابن القلانسي، المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٦) ابن منقذ، المصدر نفسه، ص ٦٤ و ٦٨ - ٧١.

(٧) ابن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٢٩، ١٥٦، ١٧٨ و ١٨٠.

(٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦١، وعبد الرحمن بن اسماعيل أبو شامة، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، ص ٥٨.

والغدر^(٩). وقد تنبّهت المصادر التاريخية العربية إلى هاتين الصفتين وأوردت أمثلة عديدة للدلالة على ذلك^(١٠).

وتكشف الأمثلة التي ساقها المؤرخون العرب المعاصرون لأحداث الحروب الصليبية عن أن الصليبيين لم يكونوا يغامرون بدخول معركة ضد المسلمين ما لم تكن نتائج المعركة مضمونة تماماً في تقديرهم. كما تكشف المصادر التاريخية العربية عن أنهم كانوا يميلون إلى القيام بعمليات عسكرية سريعة ومضمونة، ويبحثون دائماً عن النصر السريع السهل؛ متوسلين إلى ذلك بالحيلة والخداع. ومن ناحية أخرى، كان الصليبيون شديدي الاهتمام بالحصون والقلاع؛ سواء في المدن التي احتلوها على الأرض العربية، أو حتى أثناء قيامهم بالهجوم أو حصار المدن العربية. فقد كانت التحصينات والقلاع والخنادق من أهم ركائز النظام الدفاعي في المستوطنات الصليبية في فلسطين والشام، كما كانت هجماتهم تتم تحت ستار الأبراج المتحركة الضخمة التي تشبه القلاع أيضاً. والأمثلة كثيرة ومتواترة في المصادر التاريخية العربية حول ذلك^(١١).

ويمكن تفسير الحذر الصليبي في ضوء إحساس الصليبيين بانتمائهم إلى كيان دخيل قائم في محيط بشري معاد يتحيز الفرصة للإطاحة بهذا الكيان. وربما كان هذا الإحساس كامناً في اللاشعور في بداية الحركة الصليبية والانتصارات التي حققتها الحملة الأولى؛ ولكن تصاعد المقاومة العربية الإسلامية، ثم تنظيمها بحيث انتقلت إلى مرحلة الهجوم أفقد هذا الكيان الدخيل إحساسه بالأمان، لا سيما وأن المقاومة ضده لم تتوقف طوال وجوده على الأرض العربية في فلسطين.

والواقع التاريخي يدلنا على أن أية مجموعة استيطانية وسط أكثرية معادية لا بد لها من التمركز في مجموعة من المدن والقلاع الحصينة، وأن تهتم بتدعيم قوتها العسكرية لكي تؤمن وجودها. وهو ما يصدق على الكيان الصليبي في بلاد الشام. وإذا كانت المصادر التاريخية العربية قد لاحظت اهتمام الصليبيين بالتحصينات، فإن استماتة الصليبي في الدفاع عن مدنه وقلاعهم لفتت انتباه المؤرخين العرب المعاصرين أيضاً. ويمكن تفسير هذه الاستماتة والضراوة في الدفاع عن المدن والقلاع الصليبية، في ضوء الحقيقة القائلة بأن خروج الصليبيين من المدن والأراضي التي

(٩) يحاول أحد المؤرخين المحدثين تبرير الحذر الصليبي بقوله «... إن الشجاعة لا تعني أن يغض الفارس بصره عن الأخطار الماثلة، كما أنها لا تعني التهور أو الاندفاع الطائش، وإنما تعني القدرة على تحديد حجم الخطر وتقدير مداه في هدوء لا يدع للخوف سبيلاً إلى نفس الإنسان...» انظر:

M. R. B. Show, Joinville and Villehardouin, *Chronicles of the Crusades* (London: Penguin Books, 1973), p. 15.

(١٠) يقول ابن منقذ: «... وهم لعنهم الله أكثر الناس احترازاً في الحرب...» انظر: ابن منقذ، كتاب الاعتبار،

ص ١٢.

(١١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٨٥، ١٨٦، ٢١٣، ٢١٤ و ٢٩٧ - ٢٩٩: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٠٣ - ١٣٩، ج ١١، ص ١٤٨: ابن شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٩٠، ٩٤، ١٠٠ - ١٠١ و ٢١٣ - ٢١٤: ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج ٢، ص ١٤٢: ابن منقذ، المصدر نفسه، ص ٥٦ - ٥٧، وأبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية: عصر الحروب الصليبية، تحقيق حسين نصار (القاهرة: مكتبة مصر، [١٩٥٥])، ص ٢٩١ - ٢٩٢ و ٢٩٤ - ٢٩٥.

احتلوها في بلاد الشام كان يعني النهاية بالنسبة لهم؛ وهو ما حدث بالفعل عندما قام المصريون بإنهاء الوجود الصليبي في المنطقة العربية في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. وهناك الكثير من الأمثلة التي أوردتها المصادر التاريخية على استماتة الصليبيين في الدفاع عن حصونهم^(١٢).

هذه الصورة، بتفاصيلها الفرعية، التي تدعمها كثير من الأمثلة التي أوردتها المصادر التاريخية العربية، تكشف عن وعي عربي عام بخطورة التجربة التي خاضتها الأمة العربية في مواجهة الصليبيين طوال الفترة ما بين القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر من الميلاد. هذا الوعي بالتفاصيل الصغيرة كان يتبلور من وعي أشمل بخطورة الهجوم الصليبي على دار الإسلام عامة، وعلى المنطقة العربية على نحو خاص. وقد كشفت كتابات مؤرخين من أمثال «ابن واصل» و«ابن عبد الظاهر» و«المقريزي» و«ابن الفرات» و«ابن تغرى بردى» وغيرهم عن هذا الوعي الذي كان نتاجاً للتأمل الهادئ لتلك الظاهرة التاريخية بعد نهايتها.

ومن المسلم به أن الآثار والنتائج التي تنجم عن الحروب في المجتمعات البشرية لا تظهر بين عشية وضحاها؛ لاسيما في مجال التأثير الثقافي. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الآثار والنتائج لا تختفي بمجرد توقف عجلة الحرب عن الدوران؛ وإنما تتخذ لنفسها شكل تيار اجتماعي/ثقافي مستمر ومتصاعد، بحيث يفرض نفسه في فنون المجتمع وأدابه التي تعبر عن الرؤية الشعبية الوجدانية للحدث التاريخي.

ففي ذلك العصر الذي شهد أول هزيمة كبرى للعرب المسلمين في تاريخهم، والذي شهد خطراً استيطانياً يقطع أجزاءً غالية من قلب الوطن العربي، شاعت في الشعر والأدب أنماط جديدة عبرت عن تطور الحالة الوجدانية طوال فترات تلك المواجهة الصعبة. فقد عجز الناس عن تفسير ما حدث نتيجة للحملة الصليبية الأولى، ونجاحها في الاستيلاء على بيت المقدس وأجزاء كبيرة من بلاد الشام. فقد كان الصليبيون أقل عدداً، وأضعف عدة، كما كانوا أدنى في مستواهم الحضاري من المسلمين. وعلى الرغم من ذلك، انتصروا بفضل التشرذم السياسي وأثنية حكام المنطقة العربية آنذاك. وتطلب الأمر قرنين من الزمان، حافلين بالصراع والقتال والجهد الشاق، للقضاء على الكيان الصليبي الدخيل. وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة عجز الحكام عن تفسيرها؛ فلجأ الخيال الشعبي إلى التفسير الوجداني والتعويض النفسي من خلال حكايات «ألف ليلة وليلة» وغيرها من الفنون الشعبية^(١٣). هذا التفسير الوجداني لحوادث الحروب الصليبية كان تجسداً للعلاقة بين الفن والتاريخ. وقد سربت الحروب الصليبية بعض آثارها في أكثر من مائتي ليلة من ليالي «ألف ليلة وليلة»^(١٤).

وإلى جانب الأدب الشعبي، تركت الحروب الصليبية تأثيرها الواضح في ذلك التراث الشعري الكبير الذي جاء تعبيراً عن ظروف المنطقة العربية الإسلامية، في مرحلة المواجهة

(١٢) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٩١، ٩٣ - ٩٤، ١٢٠، ١٦٧، ٢٢٣ - ٢٢٤ و ٢٢٦ - ٢٢٧، والأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦٥، ١٢٤، ١٢٩ و ٢٧٣ - ٢٧٤.

(١٣) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ ([د.م.]: دار الفكر، ١٩٨٦)، ص ٧٥ - ٧٧.

(١٤) هي حكايات «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، و«علي نور الدين ومريم الزنارية»، و«الصعدي وزوجته الفرنجية». انظر: قاسم عبده قاسم، «الرؤية الشعبية للحروب الصليبية في ألف ليلة وليلة»، مجلة الماثورات الشعبية، السنة ٢، العدد ٦ (نيسان/أبريل ١٩٨٧)، ص ٨٥ - ٩٩.

التاريخية ضد العدوان الصليبي^(١٥). ومن البديهي أن ذلك العصر الزاخر بالأحداث الجسام قد ترك بصماته على شعرائه وأدبائه، وعلى نتاجهم بالقدر الذي يجعل منه مصدراً هاماً من مصادر تاريخ تلك الفترة. ومن ناحية أخرى، كان التراث الشعري والأدبي الذي خلفته فترة الحروب الصليبية نتاجاً أو صدى للحوادث التاريخية.

هكذا كانت الحروب الصليبية في الأدبيات العربية زمن تلك الحروب، تعبيراً متكاملًا عن وعي العقل العربي المسلم بأبعاد هذه التجربة التاريخية الشاقة. ثم جاء زمن تدهورت فيه الثقافة العربية الإسلامية، وتخلت عن مكان الريادة، كما تحول العقل العربي إلى حال من الركود ثم التبعية التي جعلته يرى في ثقافة الغرب الأوروبي ثقافة مرجعية. وكانت أخطر نتائج فترة القهر الاستعماري في الوطن العربي في العصر الحديث هي تحول العقل العربي من الإبداع والإنتاج الثقافي إلى الاستهلاك للمواقف والاتجاهات الثقافية التي يبدعها العقل الأوروبي والأمريكي.

وفي مجال الدراسات التاريخية، تبدو المفارقة أكثر وضوحاً. فعلى الرغم من العمق التاريخي للأمة العربية وجذورها الضاربة في أعماق الزمن، وعلى الرغم من تنوع التجارب التاريخية التي مرت بها أقطار الوطن العربي؛ فإن الوعي العربي بالتاريخ وخبراته التراكمية يبدو ضئيلاً للغاية اليوم. ونحن نتصرف وكأننا قوم يبدؤون من الصفر، إعتقاداً على أرصدة الآخرين. ويفتقر موقف العقل العربي من الخبرات التاريخية التي يحفل بها تراث العرب إلى مقومات الوعي بالوظيفة الاجتماعية السياسية لعلم التاريخ. ومن ناحية أخرى، يكشف تاريخ التدوين التاريخي في الثقافة العربية عن انجازات كبيرة للعقل العربي في هذا المجال، قبل عصور التدهور التي ما زلنا نعاني آثارها السلبية حتى الآن. فقد كتب المفكرون والمؤرخون العرب في تاريخ التاريخ ومناهجه وفلسفته وأصوله، ووصلوا بهذا العلم إلى قمة التطور في ظروف عصرهم الموضوعية. ومع ذلك، فإن البحث التاريخي اليوم في الوطن العربي لا يزال ، بصفة عامة، يبدو وكأنه فرخ من أفراخ البحث التاريخي لدى الغرب الأوروبي.

وعلى الرغم من أن بعض الدراسات والبحوث لمفكرين عرب في المشرق والمغرب تكشف عن درجة عالية من الوعي، والقدرة على استخدام الرصيد التاريخي لحساب الحاضر والمستقبل؛ فإن مثل هذه الكتابات تظل جهوداً فردية متناثرة هنا وهناك، دون خطة للتخلص من حال التبعية واستهلاك ما يصدره الغرب من أفكار ومناهج ونظريات. إن هذا الوضع يكشف عن أننا بحاجة حقيقية إلى جهود كبيرة لإعادة كتابة، وقراءة، التاريخ العربي على نحو يخرج به من نطاق «الإرث» إلى مجال «التراث»، ويحوّله من نمط «التاريخ العبء» إلى نوع من «التاريخ الحافز».

واللافت للنظر حقاً أننا نكتب التاريخ، ونقرأه في كثير من الأحيان على أنه نوع من قصص الماضي تحكى في مجالس السمر، كما أن البعض يظنه حلقة تزدان بها الرؤوس الفارغة، أو أنه نوع من «التاريخ المملب» يمكن استعماله في المناسبات و «حسب الطلب». وقليلون هم الذين أدركوا أهمية التاريخ باعتباره علماً ذا وظيفة اجتماعية/سياسية. وقد أدرك هذا النفر من المفكرين العرب أن التاريخ علم يتصل بالماضي في موضوعه حقاً، ولكنه يرتبط بالحاضر والمستقبل، من حيث هدفه

(١٥) محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية واثرها في الأدب العربي في مصر والشام (القاهرة: مكتبة

مصر، ١٩٤٩)، ص ٢٠٨ - ٢٣٦.

ودوره في خدمة الإنسان. وحاول هؤلاء أن يستخدموا مواهبهم في إعادة قراءة تاريخ الأمة العربية على أسس جديدة، ولكن كتاباتهم ظلت أشبه بجزر صغيرة عامرة في بحر الظلمات. وما زلنا نفتقر حتى الآن إلى محاولة جماعية لإعادة فهم التاريخ العربي، بشكل يجعل من التاريخ سلاحاً من أسلحة النضال العربي صوب التقدم والحرية.

وإذا انتقلنا من العام إلى الخاص؛ فإن الأدبيات العربية المعاصرة في تناولها لقصة «الحروب الصليبية» شابها الكثير من القصور وعدم الوعي بقيمة التجربة. وعلى الرغم من أن تجربة المواجهة العربية الإسلامية للعدوان الصليبي، يمكن أن تكشف لجمهور الأمة العربية عن مجموعة فذة من الرموز القومية التي تضيء لنا الطريق، وتبعث في نفوسنا الأمل؛ فإن الوعي العام بهذه التجربة ضئيل إلى حد مخيف. وربما كان ذلك راجعاً إلى مسار الدراسات التي تناولت قصة «الحروب الصليبية» في الأدبيات العربية المعاصرة. فالكثير من هذه الدراسات نحت نحو الدراسة الأكاديمية الضيقة للظاهرة الصليبية بحيث تبدو جزئيات «الظاهرة الصليبية» في هذه الدراسات وكأنها معلقة في هواء التاريخ لا تربطها الجذور بالماضي، كما أن فروعها لا تمتد إلى الحاضر أو المستقبل. كما أن بعض الدراسات القليلة التي حاولت أن تدرس «الحروب الصليبية» دراسة شاملة، قدمت مسحاً تاريخياً بمنهج سردي لهذه الظاهرة. وفي أحيان أخرى اتخذت الكتابات العربية شكلاً عاطفياً يختزل التجربة التاريخية الطويلة في عدة أسماء بطولية، ومواقع انتصر فيها العرب المسلمون.

والحقيقة أن هناك مداً متصاعداً في الوعي بأهمية دراسة «الحروب الصليبية» باعتبارها ظاهرة تاريخية هامة؛ ولكن عدداً قليلاً من الباحثين هم الذين ربطوا بين هذه الظاهرة وبين النضال العربي الأثني ضد الظاهرة المشابهة وهي «العدوان الصهيوني» على الأمة العربية. واللافت للنظر أن كثيراً من البحوث والدراسات العربية التي نشرت عن الحروب الصليبية في فترة المد القومي العربي، والإحساس المتنامي بضرورة العمل العربي المشترك، قد حملت في مقدماتها أو عناوينها ما يشير إلى إدراك مؤلفيها لأهمية دراسة تلك الظاهرة من منظور معاصر يحاول أن يفيد منها في الصراع العربي - الإسرائيلي^(١٦).

وإذا كان د. «قسطنطين زريق» قد حاول سنة ١٩٥٩م إحصاء ما ساهم به المؤرخون العرب في دراسة تاريخ الحركة الصليبية^(١٧)، فإن مرور حوالي ثلاثين سنة على هذه الإحصائية، جعل الدراسات العربية تتضاعف عدة مرات دون حدوث تغير نوعي واضح في هذه البحوث والدراسات التي كان معظمها عبارة عن أطروحات للمجستير والدكتوراه في الجامعات العربية^(١٨).

(١٦) من الباحثين والمؤرخين العرب د. نظير حسان سعداوي وكتابه: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي؛ د. حسن حبشي وكتبه عن «الحملات الصليبية»؛ د. سعيد عبد الفتاح عاشور عن «الحركة الصليبية»؛ ود. جوزيف نسيم وكتبه عن «حملة لويس التاسع وهزيمته في المنصورة» وكتابه عن «العرب والروم واللاتين في الحملة الأولى».

(١٧) قسطنطين زريق، «ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي في فترة الحروب الصليبية»، الأبحاث، المجلد ١٢ (١٩٥٩).

(١٨) ثمة إحصائية برسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات المصرية حتى عام ١٩٨٤. انظر: ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير قاسم عبده قاسم ورافت عبد الحميد (د.م. د. ن. -)، ١٩٨٤. انظر أيضاً: محمد مؤث أحمد عوض، «ببليوجرافيا الحروب الصليبية: المراجع العربية والعربية»، في: المصدر نفسه، ج ٢ (١٩٨٥)، ص ٣٩٤ - ٤٢٣.

والتأمل في عناوين هذه الدراسات يجد أنها دراسات تتعامل مع التجربة الصليبية باعتبارها تجربة تنتمي إلى الماضي الذي انتهى.

وهكذا، فإن معظم من تناولوا تاريخ «الحروب الصليبية» في الوطن العربي اليوم، لم يحاولوا دراستها من منظور معاصر يحاول الدراسة المقارنة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية. وهي على أية حال، محاولة غير تعسفية تقوم على أسس علمية واضحة.

- ٢ -

في مقابل هذا الانقطاع بين القديم والحديث في الأدبيات العربية التي تناولت قصة «الحروب الصليبية»، نجد موقفاً مختلفاً تمام الاختلاف في أدبيات الغرب الأوروبي والأمريكي. هذا الموقف الثقافي الأوروبي من تجربة الحروب الصليبية تجسده كلمات المؤرخ الشهير «جوناثان رايلي سميث»: إذ يكتب عن ماهية «الحروب الصليبية»، فيقول: كانت الحركة الصليبية واحدة من القوى الكبرى في تاريخنا. فقد جرت معاركها على نطاق واسع، سواء على مستوى الجغرافيا، أو من حيث عدد الرجال الذين خاضوها، وقد حكمت الحروب الصليبية مشاعر الغرب الأوروبي فيما بين سنة ١٠٩٥م وسنة ١٤٠٠م. بشكل شامل، وبحيث انه يندر أن يوجد كاتب تناول الشؤون المعاصرة في تلك الفترة لم يُشر في نقطة ما إلى إحدى الحملات الصليبية، أو إلى مصير الدول التي أسست في غمرة الحملات الصليبية على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط. وحتى اليوم من الصعب أن تقف موقف اللامبالاة من تاريخ الحروب الصليبية التي كانت لا تزال تحتفظ بجاذبيتها حتى القرن الثامن عشر؛ فقد تم شن هذه الحروب لتحقيق هدف يمكن تصويره غاية في النبل وغاية في الخسة أيضاً، وعلى مر القرون ظل الناس يستلهمون الأفكار والحافز من الحروب الصليبية، أو ينظرون إليها باعتبارها درساً موضوعياً للفساد الإنساني. وفي العصور الحديثة يرى الفرنسيون في الحروب الصليبية أول مشروعاتهم الوطنية للاستعمار؛ كما أن البريطانيين في فلسطين سنة ١٩١٧م وكذلك الإسرائيليون في العقود القليلة الأخيرة، اعتبروا أنفسهم ورثة لتراث الحملات الصليبية؛ كما أن هناك حركة في الكنائس المسيحية الحديثة، تتألف من علماء لاهوت التحرير وقوى اليسار الجديد، تعبر عن بعض الأفكار التي ساقها المبررون الصليبيون، ربما دون أن يدركوا هذه الحقيقة. وسواء بالخير أو بالشر، قدمت الحملات الصليبية قوى جديدة في سياسات إقليم شرق المتوسط استمرت حوالى ستمائة سنة، وساعدت على غرس عناصر في المسيحية اللاتينية تبدو الآن كما لو كانت جزءاً أصيلاً فيها^(١٩).

هذه الكلمات التي نقلناها عن واحد من أشهر مؤرخي الغرب الأوروبي تكشف عن موقف الدراسات التاريخية الأوروبية والأمريكية من هذه التجربة الغدة التي يرى الغربيون فيها «واحدة من القوى الكبرى» المحركة لتاريخهم (وهو موقف يفتقر إليه العقل العربي تماماً كما أوضحنا). وإذا كانت الحركة الصليبية قد ظلت موضوعاً مفضلاً لدى الأوروبيين ثم الأمريكيين منذ سنة ١٠٩٥م وحتى الآن؛ فإن تناولنا لهذا الموضوع يبدأ بتناول موقف المؤرخين الصليبيين من الشخصية العربية الإسلامية، ثم نتطرق إلى موقف الدراسات الأوروبية والأمريكية الآن من ظاهرة «الحروب الصليبية».

ولم تكن «الحروب الصليبية» مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صراعاً بين حضارتين، بكل ما يحمله هذا الصراع من تيارات واتجاهات قد تكون نتيجة لتعارض هاتين الحضارتين في مرحلة ما من مراحل النمو والتطور. ففي القرن العاشر كانت المقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية، والحضارة الأوروبية الغربية تكشف عن أن أوروبا كانت منطقة متخلفة تماماً. وبعد ذلك بقرن من الزمان، كانت أوروبا تحاول أن تنفض عن نفسها غبار التخلف، وبدأت أولى مراحل النمو والتقدم الذي تجلت مظاهره على المستويات كافة.

بيد أن هذا النمو الذي نقل أوروبا الغربية من منطقة ريفية متخلفة إلى منطقة نامية تعتمد على التبادل التجاري، وعلى قدر من النمو الصناعي والمالي خلال قرنين من الزمان، فرض على أوروبا أن تصطدم بالحضارة العربية الإسلامية المتفوقة. ومع زيادة معدل النمو الأوروبي، تصاعدت حدة العداء ضد العرب والمسلمين الذين كانوا يفرضون وجودهم على كل الاتجاهات. وفي ظل الظروف الداخلية للغرب الأوروبي، بدأت تتشكل أيديولوجية تمهد لصدام عسكري واسع النطاق ضد العرب سادة البحر المتوسط من ناحية، ولكي توفر للحضارة الأوروبية النامية مجالاً حيويًا في المنطقة العربية من ناحية أخرى.

وفي خضم هذا التفاعل، كانت الدعاية الكنسية والجهود البابوية تركز العداء ضد العرب المسلمين، وترسم لهم صورة بغيضة كريمة جعلت الناس في أوروبا الكاثوليكية يتحرقون شوقاً لقتلهم. وكانت الأيديولوجية التي أفرزت الحملات الصليبية من أهم أسباب الملامح القاتمة التي رسمها المؤرخون والشعراء والأدباء الأوروبيون للعرب والمسلمين زمن الحروب الصليبية.

وتكشف الأوصاف التي أسبغها مؤرخو الحملة الأولى على العرب والمسلمين، بكرم شديد، عن مدى التعصب الذي كان يحكم أوروبا الكاثوليكية آنذاك. فلم يكن الأوروبي ليعترف، أو يسمح، بوجود «الأخر». فهذا «الأخر» لم يكن نتاجاً لمعرفة واقعية؛ وإنما هو نتاج رعاية نزقة غذتها الكنيسة التي كانت تسيطر على الحياة الثقافية في أوروبا العصور الوسطى، كما غذتها روح التدين الشعبي العاطفي الذي يتسم بالتعصب المقيت، في ظل ظروف اجتماعية واقتصادية متدهورة.

والأمر اللافت للنظر أن الشخصية الإسلامية عامة، والعربية خاصة كما جاءت في الخطاب التي صاغها المؤرخون الأوروبيون على لسان البابا أوربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥م^(٢٠)، شخصية مثقلة بكل الشرور والخطايا والآثام التي يمكن أن يحملها البشر. هذا التصوير، أو التصور، العدائي للشخصية العربية والإسلامية، صاغه رجال الكنيسة الذين كتبوا هذه الخطبة على لسان البابا دون أن يرى أحدهم عربياً واحداً أو مسلماً في الطبيعة؛ ولذا فإنهم استخدموا كل براعتهم في هذه الصياغة الكريهة. ولكنهم حين بدأوا يتعرفون على العرب والمسلمين، من خلال الصدام المسلح والمعايشة الواقعية فوق الأرض العربية، اكتشف عامة الصليبيين كيف ضللتهم الدعاية البابوية، وبدأت بعض الملامح الواقعية للشخصية العربية الإسلامية تتسرب إلى ثنايا الصورة التي رسموها؛ وإن ظلت حدة العداء كامنة في كتاباتهم.

(٢٠) لم يصلنا نص الخطبة التي ألهاها البابا أوربان الثاني في كليرمون بجنوب فرنسا ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٠٩٥ في جموع الكاثوليك يحضهم على الخروج في حملة مقدسة تحت راية الصليب ضد المسلمين؛ ولكن وصلتنا خمس صياغات لهذه الخطبة تعكس كل منها رؤية المؤرخ الذي كتبها للحادثة بعد تمامها. انظر هذه النصوص في: قاسم، الحروب الصليبية: نصوص ووثائق، ص ٧٢ - ٩١.

وازدادت الصورة وضوحاً بعد استقرار الصليبيين في المنطقة العربية. فقد أخذت معلوماتهم السكانية والجغرافية والاجتماعية والدينية عن الوطن العربي تتحسن رويداً رويداً، وتجلت هذه الخاصية بشكل اساسي في كتابات «وليم الصوري». وعلى الرغم من أن المؤرخين الأوروبيين، في ذلك الحين، لم يتخلوا عن عدائهم للحضارة العربية الاسلامية، فإن كتاباتهم اقتربت من الملامح الواقعية للشخصية العربية إلى حد كبير. ولأن الحروب الصليبية، كانت طويلة الأمد، وتخللتها فترات سلام نسبي وتعامل وتبادل مع العرب المسلمين، فقد اكتسب مؤرخو الحروب الصليبية اللاتين خبرات جديدة لأنهم كانوا في وضع يمكنهم من التعرف على حضارتين في مرحلة الصدام والتفاعل المتبادل. فقد توفرت لأولئك المؤرخين فرصة طيبة لأن يعرفوا ان اعداءهم من البشر، وليسوا من الشياطين، كما صورتهم الدعاية في كتابات التمهيد للحرب.

لقد كشف مؤرخو الحملة الأولى، ومنهم الفارس المجهول، وفوشيه دي شارتر، وجيوبرت النوجنتي، وبلدريك الدولي، وريمون الأجيولري، وألبرت الأيكسي عن عدائهم للعرب المسلمين والأتراك دون مواربة^(٢١). بل إن بعضهم كان يبدي سروره في عبارات بليغة لما ارتكبه الصليبيون من اعمال وحشية ضد العرب في بلاد الشام. ولم يخطر ببالهم قط أن يكون لهؤلاء العرب حق في بلادهم؛ وإنما كانوا يرون فيهم مجموعة من الوثنيين الذين يستحقون القتل. وأول ما يلفت النظر في الصورة التي رسمها أولئك المؤرخون للشخصية العربية الإسلامية عداؤهم الشديد للمسلمين من جهة، وجهلهم بحقيقة الدين الإسلامي والثقافة العربية من جهة ثانية. فهم يصمون المسلمين بالكفر والوثنية أحياناً، وبالبربرية والشر أحياناً أخرى^(٢٢). ولم يكن فوشيه الشارتر يحمّل أية مشاعر ودية تجاه العرب، أو غيرهم من المسلمين^(٢٣).

وما يصدق على فوشيه، يصدق على غيره من المؤرخين اللاتين الذين كتبوا زمن «الحروب الصليبية». ولكن أهم ما يلفت النظر في موقفهم من هذه الحملات انهم ظلوا يعتبرونها في البداية «مشروع الرب» و «حملة المسيح» و «الحملة المقدسة» و «الرحلة المقدسة». وما إلى ذلك. ولم يستخدموا مصطلح الحملة الصليبية سوى في أواخر القرن الثاني عشر. وقد رأوا فيها - على نحو أواخر - نوعاً من «الخروج» الثاني في تاريخ البشرية. وقد انعكس هذا الموقف أيضاً في الآداب والفنون الأوروبية في العصور الوسطى.

فقد ترك الشعراء اللاتين كثيراً من الملاحم الشعرية والقصائد ذات الدلالة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية، تصلح أن تكون مقياساً هاماً لتطور الفكرة الصليبية في الوجدان الأوروبي؛ منذ البداية وحتى نهاية الوجود الصليبي على الأرض العربية. ومن أهم المعالم البارزة في هذا النتاج «أنشودة انطاكية» La Chanson D'Antioche؛ وهي إفراز شعري للحركة الصليبية

(٢١) انظر النصوص التي ترجمناها نقلاً عن هؤلاء المؤرخين في: المصدر نفسه.

(٢٢) Foucher de Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem, 1095-1127*, translated by Frances Rita Ryan, edited with an introduction by Harold S. Fink (Knoxville: University of Tennessee Press, 1969), pp. 3-5, 37-38, 94-96, 104-105, 113, 121-122 and 143-146, and M. Hill, ed., *The Deeds of the Franks and other Pilgrims to Jerusalem* (London: [n. pb.], 1962), pp. 33 and 35-38.

(٢٣) عندما سببت بعض النسوة المسلمات اثناء وجود الصليبيين في انطاكية، عام ١٠٩٨، قال فوشيه في سخرية، وتلذذ ان الفرنج «... لم يفعلوا بهن شراً، وإنما بقروا بطونهن بالرماح والحراپ...». انظر:

Foucher de Chartres, *Ibid.*, p. 106.

في غرب أوروبا من جهة، وتعبير عن موقع الفكرة الصليبية من الوجدان الأوروبي من جهة أخرى. وهذه القصيدة الطويلة من النوع الملحمي الذي لا نعرف مؤلفه على وجه اليقين^(٢١). والقصيدة تدور حول أحداث الحملة الصليبية الأولى ويبدو من عدد المخطوطات الكثيرة التي تحمل نصوصاً لهذه الأنشودة، أنها كانت متداولة على نطاق واسع في غرب أوروبا. وتحاول هذه الأنشودة تبرير الحرب الصليبية على أسس مقدسة. فهي تتحدث عن «فرسان المسيح» و«جنود المسيح» و«الشعب المقدس» و«شعب الرب» الذين خرجوا إلى فلسطين «الأرض التي تفيض باللبن والعسل» لكي يحققوا اطماعهم الدنيوية تحت ستار ديني^(٢٢).

والحقيقة أن الأغنيات أو القصائد التي انتجها الشعراء الأوروبيون بمناسبة «الحروب الصليبية» كثيرة ومتنوعة، وهي تخط بين الموضوعات السياسية والدينية والموضوعات العاطفية. وكانت تلبية لحاجة ثقافية/اجتماعية في الغرب الأوروبي آنذاك، فقد تم تأليف التواريخ المنظومة شعراً لمن لا يعرف اللغة اللاتينية كتابة وقراءة^(٢٣). ولدينا طائفة كبيرة من القصائد التي اصطلح العلماء على تسميتها باسم «أغنيات الحروب الصليبية» Les Chansons de Croisade^(٢٤). وهذه الأغنيات تكشف، تطورها الزمني، عن تضائل الاهتمام بالحركة الصليبية في الغرب الأوروبي، وانصراف الظهير الأوروبي الكاثوليكي عن مساندة الكيان الصليبي في المنطقة العربية بفعل التطورات الجديدة التي طرأت على المجتمع الأوروبي والمشاكل التي استنفدت جُل الطاقة الأوروبية في حلها داخل الغرب اللاتيني نفسه.

والحقيقة أن كثيرين من الناس في العالم الغربي اليوم، لا يزالون ينظرون إلى مفهوم «الحروب الصليبية» نظرة رومانسية؛ لأنهم يتصورون أنها كانت تجسداً للعقيدة، وهي تسير بأسلحتها المشرعة تتألق تحت الشمس، ويرون في الصليبيين جيشاً من الرجال النبلاء الذين هذبهم تقاليد الفروسية والتقوى الدينية على الرغم من حبه للقتال. وفي كثير من الأحيان نجد المؤرخين والكتاب والساسة في الغرب الأوروبي يجتهدون لتضمين مفهوم «الحروب الصليبية» ومفهوم «الصليبيين» مضموناً إيجابياً، ويقلّمهم يتحول المشتركين في هذه الحروب إلى نموذج للنبل ومعيّار للتفاني والبطولة والنزاهة، ويظهرون في صورة تجسد الإخلاص، للمثل العليا؛ بسبب الإيمان الديني الصادق^(٢٥).

وبما أن سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، كانت هدف الحروب الصليبية المباشر؛ فإن تاريخ هذه الحروب قد اجتذب من قديم الزمان، الساسة ورجال السلك الدبلوماسي والجواسيس وقادة

Lewis A.M. Sumberg, *La Chanson d'Antioche: Etude historique et littéraire* (Paris: [s.n.], (٢٤) 1968), p. 318.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٦٦ - ٦٧.

(٢٦) لدينا من هذا النمط «أنشودة القدس» (La Chanson de Jérusalem) التي تحكي مغامرات الجيش الفرنسي الذي خرج من اللورين الأدنى تحت قيادة الدوق غودفري البويوني. انظر:

Paul Mayer, ed., *Un Récit en vers français de la première croisade fondé sur Baudri de Bourgueil* (Paris: [s.n.], 1976), pp. 1-7.

Joseph Bédier et Pierre Aubry, *Les Chansons de croisades avec leurs mélodies* (Paris: Hit- (٢٧) kine, 1909), reprints 1974.

(٢٨) ميخائيل زابوروف، *الصليبيون في الشرق* (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٦)، ص ٨ - ١٢.

الجيش؛ فضلاً عن المؤرخين والعلماء في الغرب الأوروبي^(٢٩). ويتشابه العلم مع السياسة على هذا النحو في الأدبيات الأوروبية الحديثة عن الحروب الصليبية. ولهذا نجد في مؤلفات كتاب الغرب الأوروبي والأمريكي كثيراً من الصور المشوهة والمنحازة عن تاريخ هذه الحركة التي كانت الهاماً لأعداد لا تحصى من الكتب والدراسات، بكل اللغات الحديثة في الغرب الأوروبي والأمريكي.

وتبرز في هذا المجال أسماء كثيرين من المؤرخين الغربيين البارزين أمثال «كارل اردمان» الذي كتب بالألمانية، و«رينيه جروسيه»، و«ميشو»، و«برير» الذين كتبوا بالفرنسية، و«ستيفن رنسمان» و«جوناثان رايلي سميث» و«سيتون» الذين كتبوا بالانكليزية... وغيرهم كثيرون تنوء بمؤلفاتهم رفوف المكتبات من شتى أنحاء العالم. وقد بلغ الاهتمام بتاريخ الحروب الصليبية في الأدبيات الأوروبية والأمريكية حداً فائقاً؛ فقد كتب كثيرون في التاريخ العام للحروب الصليبية، على حين تخصص آخرون في دراسة الاستيطان والكيان الصليبي في المنطقة العربية. واهتم مؤرخون من أمثال كودري وبرونداج بالجوانب القانونية في الحركة الصليبية، كما اهتم أومان وسميل بالشؤون العسكرية عند الصليبيين، وتخصص غيرهم في دراسة الحملات الصليبية، أو في مقارنة فكرة الجهاد الإسلامي بالفكرة الصليبية مثل «لامونت» و«رونالد فينوكان»، أو في البناء الطبقي للكيان الصليبي، أو في الحصون والقلاع الصليبية مثل «لورنس العرب» الشهير.

ولكن أهم ما في هذه الأدبيات الغربية جميعاً، أنها تبحث ظاهرة الحروب الصليبية بمفهوم معاصر يعكس الوعي بالوظيفة الحضارية لعلم التاريخ. وحتى الدراسات الأوروبية التي نقدت «الحركة الصليبية» كان نقدها نابعاً من حقيقة أن هذه الحركة فشلت في تحقيق أهدافها. وتفسر هذا الاهتمام الغربي بالحروب الصليبية، ينبع من الحقيقة القائلة بأن «الحروب الصليبية» لم تنته تماماً في الماضي، فهي وثيقة الارتباط بالصراع الأيديولوجي والسياسي الجاري على الصعيد العالمي. وهذا ما يفسر، ويبرر إلى حد ما، الاهتمام بهذه الظاهرة التاريخية التي بدأت أحداثها منذ تسعمائة سنة تقريباً (١٠٩٥م)، والخلاف الذي لا يزال محتدماً بين المؤرخين في فهم الحروب الصليبية. وقد تكونت في الولايات المتحدة أخيراً جمعية علمية تاريخية مهمتها دراسة الحروب الصليبية والاستيطان في المنطقة العربية، وعقدت مؤتمرها الأول الذي قدم له الباحثون الأوروبيون والأمريكيون أربع عشرة دراسة عن الحروب الصليبية، ومثلها عن الاستيطان الصليبي على أرض العرب في فلسطين ولبنان وسوريا^(٣٠).

هذا الموقف الذي تحكسه الأدبيات الأوروبية والأمريكية التي تناولت قصة «الحروب

(٢٩) هناك عدة دراسات بليوغرافية عن الدراسات التي انتجتها العقول الأوروبية والأمريكية عن الحروب

الصليبية. انظر:

Hans Eberhard Mayer, *The Crusades*, translated from German by John Gillingham (London: Oxford University Press, 1972).

حيث يقدم أكمل دراسة بليوغرافية عن الدراسات والبحوث والكتب التي نشرت في الغرب عن الحروب الصليبية. وهناك مجموعات كاملة لأعمال مؤرخي الحروب الصليبية من المسلمين واللاتين والبيزنطيين والأرمن قامت بنشرها مؤسسات علمية عديدة في الغرب الأوروبي والأمريكي.

(٣٠) نشر هذا المؤتمر أعماله في كتاب بعنوان:

Peter W. Edburg, ed., *Crusade and Settlement* (Cardiff: University College Cardiff Press, 1985).

والجمعية اسمها «Society for the Study of the Crusades and Latin East».

الصليبية» يبدو لنا موقفاً منطقياً متسقاً مع طبيعة الأمور، على الرغم من أننا قد نختلف مع كثير من توجهاته التي قد تحمل الكثير من التميز والتعصب والشطط. بيد أن الاهتمام الأوروبي والأمريكي يجد مشروعيته في أن «الحركة الصليبية» كانت من القوى الكبرى المحركة في العالم الغربي. ولا يزال مصطلح «الحملة الصليبية» و «الصليبي» مصطلحاً شائعاً في الثقافة الغربية بمفاهيم رومانسية ومثالية تدل على الخير والتجرد والدفاع عن الضعفاء. وهكذا يبدو لنا موقف الأدبيات الغربية من «التجربة الصليبية» تعبيراً عن الثقافة والعقل الأوروبي - الأمريكي ومدى الوعي بالخبرة التاريخية المكتسبة من التجربة.

- ٣ -

وإذا كانت الأدبيات العربية والأدبيات الأوروبية، قديماً وحديثاً، قد تناولت موضوع «الحروب الصليبية» بشكل يعكس موقف كل من طرفي الصراع من هذه التجربة التاريخية، فإن الأدبيات اليهودية تناولت الموضوع بشكل يختلف تمام الاختلاف عن موقف طرفي الصراع.

والأدبيات اليهودية التي تناولت قصة «الحروب الصليبية» تنقسم إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول هو الأدبيات العبرية التي كتبت زمن الحرب الصليبية، والقسم الثاني يضم الدراسات والبحوث التي قام بها الباحثون اليهود قبل وبعد قيام الكيان الإسرائيلي على الأرض العربية في فلسطين.

ومن الخطأ أن نتصور أن الكتابات اليهودية التي تناولت قصة «الحروب الصليبية» في العصور الوسطى كانت نوعاً من المؤلفات التاريخية الشاملة التي يمكن أن نقارنها بكتابات المؤرخين العرب أو المؤرخين اللاتين الذين عاصروا أحداث «الحروب الصليبية» وكتبوا عنها. ذلك أن الحوليات العبرية تناولت جانباً محدوداً للغاية من قصة هذه الحروب؛ وهو الجانب الذي يتعلق باعتداءات الصليبيين على الأقليات اليهودية في بعض مدن الراين في خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى، أو الحملة الصليبية الثانية فحسب.

وربما يكون من الأصح أن نضع الكتابات اليهودية المعاصرة للحركة الصليبية في إطار ما يعرف باسم «أدب الشكوى» عند اليهود الأوروبيين؛ وهو نمط من الكتابات الأدبية اليهودية يسجل المآسي والمتاعب التي عاناها اليهود الأوروبيون واسماء الضحايا الذين سقطوا من أبناء الأقليات اليهودية من جراء هذه الأحداث.

وكل ما وصلنا من هذا النوع أربع حوليات عبرية تحكي قصة الاضطهادات التي مارسها الصليبيون ضد الأقليات اليهودية في مدن الراين الواقعة على الطريق الذي سلكه جنود الحملة الصليبية الأولى وقوات الحملة الثانية؛ في أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر^(٣١). وثلاث من هذه الحوليات الأربع تحكي قصة الاضطهادات التي تعرض لها يهود أوروبا في غمار أحداث الحملة الصليبية الأولى. وهذه الحوليات الثلاث هي:

«The Chronicle of Solomon bar Simson» -

أي «حولية سليمان بن شمشون».

The Chronicle of Rabbi Eliezar bar Nathan –

أي «حولية الربى إلعازر بن ناثان».

. The Narrative of the Old Persecutions –

أي قصة الاضطهادات القديمة.

وهذه الحولية الأخيرة معروفة باسم آخر هو «حولية مينز».

واللافت للنظر أن هذه الحوليات الثلاث عبارة عن قصة متكررة للأحداث نفسها، على الرغم من أن بؤرة التركيز الجغرافي، ومدى التركيز على الحوادث، وأسلوب العرض يختلف من واحدة لأخرى. فبينما تركز حولية «سليمان بن شمشون» وحولية «الربى إلعازر بن ناثان» على الأحداث التي جرت في مينز وكولون بالأراضي الألمانية، وتتعامل باختصار مع الأحداث التي جرت ضد اليهود في سباير وورمس. نجد أن حولية مينز تعطي الأولوية للأحداث التي جرت في ميتر وورمس. وتحمل هذه الحوليات سجلاً بأسماء ضحايا العنف الصليبي أثناء خروج قوات الحملة الشعبية التي كانت بمثابة الطليعة لقوات الحملة الصليبية الأولى.

أما الحولية الرابعة فتحمل عنواناً عبرياً هو «سفر زخيره» أي «كتاب الذكريات» أو «سجل الذكريات». وقد كتبه إفرام أحد سكان مدينة بون الألمانية عن أحداث الحملة الصليبية الثانية. وهو مثل الحوليات الثلاث الأخرى يدخل ضمن ما يمكن أن نسميه أدب الشكوى اليهودي.

والحقيقة أن وصف هذا النمط من الكتابات بالحوليات، فيه قدر كبير من التجاوز، كما أن وضع هذا النتاج ضمن أنماط التدوين التاريخي المعروفة يحمل قدراً كبيراً من التسامح. فهذه الكتب في حقيقة أمرها، نوع من المذكرات التي حرص أبناء الأقليات اليهودية في غرب أوروبا على تدوينها لكي يقرأوا منها في صلواتهم أسماء أولئك الذين قتلهم الصليبيون في مدن وادي الراين وشمال غرب أوروبا، قبيل وأثناء الحملات الصليبية. وعلى الرغم من أن هذه المذكرات بدأت أصلاً لتسجيل ضحايا الصليبيين من أبناء الأقليات اليهودية؛ فإنها سجلت ضحايا الحوادث والاضطهادات اللاحقة، وظلت جزءاً أساسياً في كتب الصلوات عند الطائفة اليهودية الألمانية، حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وإذا كان هذا هو موقف الأدبيات التي كتبها اليهود الأوروبيون المعاصرون للحركة الصليبية، فإن موقف الدراسات الإسرائيلية المعاصرة من تاريخ الحروب الصليبية يثير أكثر من علامة تعجب واستفهام. فلم يكن اليهود طرفاً في المواجهة الحضارية الطويلة المرهقة بين العرب المسلمين من ناحية، والأوروبيين الكاثوليك من ناحية أخرى. بيد أن موقف الأدبيات الصهيونية من تاريخ الحركة الصليبية يكشف عن مدى وعي الصهاينة بأهمية استخدام التاريخ، ضمن اسلحتهم في الصراع ضد العرب. لقد فهم مخطوط الدعاية الصهيونية أهمية الاستخدام الذكي للتاريخ والفن باعتبارهما دعامتين أساسيتين في أية سياسة اعلامية ودعائية ناجحة. فالفن وسيلة رائعة لخلق المواقف الوجدانية، وصياغة مشاعر الأفراد والجماعات. والتاريخ لغة قوية تحمل مصداقية ذاتية لدى جمهور الناس في كل زمان ومكان، فضلاً عن أنه نقطة الالتقاء بين الماضي والمستقبل مما يجعل الناس يولونه اهتماماً كبيراً.

والموقف الاسرائيلي من تجربة الحروب الصليبية يخدم الاهداف الصهيونية من عدة جوانب؛ فهو تعبير عن الاتجاه الدعائي الصهيوني لخلق مجموعة من الأكاذيب التاريخية بهدف تحسين صورة اليهودي في الوجدان الانساني العام من ناحية، وتصوير العرب في صورة العالة الحضارية التي عاشت في الماضي على منجزات العبقريّة اليهودية من ناحية أخرى. وهذا الموقف يتجسد في كتابات عدد كبير من الباحثين اليهود منهم «إسرائيل ولفنسون»، و «جاكوب مان» و «جويتين» و «أشتور» و «كوهين» و «برنارد لويس»، و «سيفان» و «بنفنستي» و «يوشع براور»... وكثيرين غيرهم ممن تخصصوا في تاريخ وحضارة العرب والمسلمين.

وتتخذ الدراسات الاسرائيلية للحروب الصليبية أربعة اتجاهات أساسية:

- محاولة اختلاق استمرارية ما يطلق عليه «تاريخ اليهود»، ليس بالمفهوم الديني، وإنما بالمعنى الحضاري الشامل. وهي محاولة تعسفية تعتمد على تشويه الحقائق، كما أنها محاولة زرع كيان تاريخي مفتعل من غيابات الوهم وضباب الأساطير والتحيز، ولا يقوم على أساس علمي، لأن الدين وحده لا يكفي لخلق التاريخ المشترك في غياب الأرض والتفاعل الاجتماعي والتواصل الثقافي بين من يعتقدون هذا الدين.

ويحاول الباحثون الاسرائيليون اختلاق استمرارية تاريخية مستقلة للوجود اليهودي في مواجهة العدوان الصليبي على أرض فلسطين، كما يحاولون تصوير الاضطهادات الصليبية ضد يهود أوروبا في زمن الحروب الصليبية على أنها بداية لظاهرة معاداة السامية، على الرغم من أن الظروف التاريخية التي أفرزتها تختلف كثيراً عن ظروف اليهود تحت الحكم النازي في القرن العشرين.

- اختلاق دور تاريخي لليهود يصورهم في صورة أصحاب الوطن الذي وقع عليه العدوان الصليبي، ويحاول الباحثون الاسرائيليون تأكيد حق اليهود التاريخي المزعوم في فلسطين، من خلال الترويج لمثل هذه الأكاذيب.

- تشويه التجربة النضالية للأمة العربية في مواجهة الصليبيين من خلال الدراسات التي تحاول النيل من أبطال التاريخ العربي من أمثال «صلاح الدين» أو «الظاهر بيبرس»، أو «المنصور قلاوون»، والبحث عن أصولهم العرقية لنفي صفة العروبة عنهم، متجاهلين أن العروبة ثقافة وانتماء حضاري، ولم تكن أبداً مسألة عرق أو دماء.

- دراسة الكيان الصليبي من منظور الصراع العربي - الاسرائيلي. بمعنى عقد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان، ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات الدولية وتأثيرها على مساندة الكيان الصليبي في العصور الوسطى، فضلاً عن محاولة فهم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت بالكيان الصليبي مع مراعاة الثوابت والمتغيرات في الحركة التاريخية من ناحية، وعلاقات القوى الدولية من ناحية أخرى.

وتتميز الدراسات الاسرائيلية للحركة الصليبية بإسقاطاتها المعاصرة على الصراع العربي - الاسرائيلي في مشكلات الأمن والحدود والعلاقات مع المحيط العربي المعادي والرافض للوجود الاسرائيلي. وهناك من يهتم بدراسة المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الصليبي، ومن يهتم برصد العلاقة بين هذا الكيان والكيان الأوروبي المساند له. وفريق من الباحثين اليهود

وجه اهتمامه إلى دراسة مشكلات الاستيطان والهجرة^(٣٢).

وفي طيات هذه الدراسات جميعاً، نجد الترويج للأكاذيب والأوهام تحت مظلة الدراسة التاريخية؛ فمن الباحثين الاسرائيليين من يحاول الترويج لوهم عدم قدرة العرب - وخصوصاً المصريين - على القتال، على حين يتحدث غيره عن رموز التاريخ العربي بشكل ينقص من قيمتها التاريخية؛ سواء أكانت هذه الرموز من أبطال العرب أم من المعارك التي كسبوها... هذه كلها، وأمور أخرى غيرها، هي التي تميز باحثاً يهودياً عن غيره، ولكن الكتابات الاسرائيلية كلها تصب في المجرى العام للعملية الدعائية الصهيونية.

هذه الدراسة تكشف عن أن قصة الحروب الصليبية لم تكن قصة تنتمي إلى الماضي وانتهت، ولكنها قصة تمد تأثيراتها إلى الحاضر والمستقبل. وهي لهذا السبب احتلت حيزاً كبيراً في أدبيات العرب واللاتين في العصور الوسطى باعتبارهما طرفي الصراع آنذاك، كما أن قصة «الحروب الصليبية» لا تزال تحظى باهتمام كبير لدى العرب والأوروبيين والأمريكيين والصهاينة اطراف الصراع في الزمن الحالي.

ولا يستطيع أحد اليوم، سواء في منطقتنا العربية أو في الغرب الأوروبي والأمريكي أن يقف موقف اللامبالاة من تجربة الحروب الصليبية، سوى عن جهل أو جهالة. وهذا - في تقديري - السبب المباشر في ذلك العدد الهائل من الكتب والبحوث التي انتجتها الأقلام العربية والأوروبية واليهودية حول موضوع واحد هو «الحروب الصليبية» □

(٣٢) لمزيد من التفصيل انظر: قاسم عبده قاسم، رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية (القاهرة: جامعة عين شمس، مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٨٣).

صدر حديثاً عن

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة الثقافة القومية (٩)

المثقفون والبحث عن مسار

دور المثقفين

في اقطار الخليج العربية في التنمية

الدكتور اسامة عبد الرحمن